

العقل العربي بين عهدين

قبل الإسلام وبعده

بقلم عبد اللطيف المغربي

المدرس بمهد التربية للبات

١

تمهيد

ترى طائرين ، أحدهما درج في بيئة تجهم لها الحظ ، وسطا عليها الكثير من مظاهر الجذب ، قتلفيه أعجف هزيلا ، بادى الضر أربد اللون بكىء الصوت طويل الصمت ، كأنما نفضت عليه بيئته ما فيها من جفاف وكدره ، ونفشت فيه ما ضمته من سكون ورهبة ، فهو صورة لها ناطقة ، وسمه من سماتها ماثلة .

والآخر نما في بيئة خصبة مزهرة ضاحكة مستبشرة ، جباها الله بما شاء من دوح باسق وزهر ناضر ، وظل ندى وماء روى ، وحب نثر وثمر وفير ، فتلمحه مرجا طروبا يختال في برده منمقة دبجتها يد القدرة بألوان زاهية ، توائم روح البيئة وتعظم بمالها من خصائص ، وتراه ينصت في رفق ودعة الى وحى جمالها الساحر ، فيجمع منه ماشاء في نفسه الصافية ، ويرسله لحنا عذبا جذابا ، يقيد الأسماع ويستهوى الألباب ، فاذا بك من صورته وصوته في غفوة من الأحلام الرائعة ، وجلوة من الأمانى الوادعة .

وانظر أعزك الله كيف أقللت في وصف الأول ، لضن بيئته بالسمح من القول ، وأطلت في الثانى ، لخصب بيئته وجودها بما رجوت من

وصف ، وهذا يشعر ك بما بين البيئتين من تباين .
 اذا بلوت هذا الذي قلته ، وقدرت له أثره ، استطعت أن تشرف
 معي على العصرين الجاهلي والإسلامي ، وتتخطى رقاب الأيام حتى تلمس
 أثرهما في العقل العربي . وإنا لموغلون بك على ضوء هذه المقدمة في سبيلهما
 حتى نوافي مارسمنا من غاية .

العصر الجاهلي

أقام العرب في هذا العصر في صحراء واسعة الأطراف ، سرت فيها
 عوامل الجذب فنبضت عنهم الكثير من متع الحياة وزهرتها ، فليس لهم
 من الطعام إلا ما يحفظ عليهم حشاشة النفس ، من ألبان الغنم والأبل
 والتمر ، فعاشوا في ظل القناعة لم تثرهم عوامل الطمع ، ولم يدفعهم إلى
 ما وراء ذلك استشراف حتى صح لقائلهم أن يقول :

وما العيش إلا نومة وتبطح وتمر على رأس النخيل وماء

وليس لهم من جمال هذا الوجود إلا ما تطالعهم به صحراؤهم من
 رياح عاتية ، وشمس زاهية ونهار أبلج وليل أليل ، تنبعث من جوانبه
 أضواء نجوم صافية ، تتلأل في قبة السماء كأنها عيون من ذوب اللجين
 تدفق ، واتساع مدى كأنه صفحة الأزل ، أو منفسح الأمل ، وطير
 سانح ووحش نافر وأوهام وأمانى يثيرها ما اشتملت عليه هذه المظاهر
 من سحر فياض ، وجلال رائع .

ولحياة الصحارى أسرار لا يفقهها إلا من تعرف إليها . وترفق في
 الاندماج فيها ، حتى توحى إليه بخبيثتها ، وتشافهه بمكنونها :

إن الذي حرّم الصحارى منظرا ألقي عليها للجلال شعاعا
 روحية صدف عن الدنيا وما فيها وأضحت للشعور مشارا

هذه الحياة المحدودة أفاضت على العقل العربي صوراً وألواناً ، هي أشبه بها : من شعور قوى وافق ، وعاطفة جياشة متقدمة ، وفطرة سَمَّحة مواتية قريبة الغور ، لاتغلغل في استقصاء ولا تعليل ولا تفريع ولا قياس ، ولا تهيم بصنعة ولا زخرف ، ولا تعرف موارد ولا مداواة . على هذا المنهج طفق العقل العربي في العصر الجاهلي يعمل في رفق وهوادة ، ويستمد حياته من الفطرة وعفو الخاطر وقوة الشعور ، التي تملكك العرب فكانت أكبر مظهر من مظاهر حياتهم ، وأحفل منبع يفيض منه الشعر العربي إذ ذاك ، وظلت هذه القوة صاحبة السلطان في تصريف حياتهم ، وأظهر ما تتجلى قوة حادة في مواقف الفروسية ، ومجالس السطوة وميادين الغلبة ، فتدفعهم إلى الحروب زرافات ووحدانا ، وتورث نارها بينهم ، فتثير كوامن الأحقاد والضغائن منهم ، فإذا الحرب قائمة على ساقها تعركهم عركاً ، وتزيد جموعهم ، حتى إذا عم الخطب وطمّ الأمر ، تنادى الخطباء وتصايح الشعراء بالدعوة إلى حقن الدماء وحفظها في أهلبها ، بأقوال مؤثرة تلبس من الثائرين مواطن الإحساس ، فإذا النفوس عائدة إلى رشدها ، والسيوف قارة في أعمادها ، ووجوه الخيل منصرفة إلى مرابطها ، والألوية مطوية ، والعهود مرعية .

وهكذا حياة الشعور في أمم الصحارى والوهاد والنجاد ، تتغنى بالفروسية وتمدح بمظاهر البطولة . وترى للإغريق في هذا السبيل شها بالعرب ، فالحروب كانت بينهم في العصور الأولى مظهر كبير من مظاهر حياتهم ، وفي ألعابهم الأولمبية مجال واسع لتمجيد البطولة ، وشاعرهم الأكبر هو ميروس صاغ إلياذته العظيمة تخليد الحياة أبطالهم ، والتغنى بما أثرهم في حروب تروادة الشهيرة ، ولتشابه شبهى الجزيرتين الإغريق والعربي تشابه قُطانهما في قوة الخيال وسموه ، وتدفق الشعور وتلهيه .

ولهذا غر العصر الجاهلي وجل آثاره وليد العاطفة والشعور والفطرة . ولم يظهر للعقل العربي فيه مظهر رائع من فلسفة أو تشريع اجتماعي أو نواح فلسفية عظيمة إلا ما جاء عفوا من خلجات نفسية تتراعى في حكمة أو مثل في أقوال زهير وأكثم بن صيفي وقس بن ساعدة الأيادي ومن إليهم .

العصر الإسلامي

ثم أشرقت شمس الاسلام في هذا الأفق وضاء باسمة على مواطن الفطرة والشعور ، فأثارت دهشة وعجبا ووقف الناس حيا لها مضطربين حيارى ، وتواقعوا بين عاملين : ماض له عاداته وتقاليده فالنفوس بفرقه ضئيلة ، ومستقبل يهرها بسره وروعه فهي منه خائفة وجللة . ولكن سرعان ما شق الاسلام طريقه إلى هذه النفوس الصافية ، فامتزج منها بالفطرة المواتية فأنبئت شكولا من التعقل بهرت بجلالها وصدقها وسموها الانسانية ، ودوت في أذن الوجود ، فكانت خير ما انعقد عليه رجاؤه وتكشفت عنه آماله ، وكذا التربة الكريمة إذا خالطها الماء العذب اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

وكان رافع لواء النهضة العربية الحديثة نحر الوجود ومبعث الهداية ، ومشرق الحكمة ومنار الرحمة ومعين الفيض الإلهي محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقد أرسل صوت الحق مدويا في أرجاء الجزيرة العربية ، قتهاوت لرهبته الأصنام ، ووسطعت شمس الهداية في الجزيرة العربية رفيقة ودیعة ، فانقضت بها الخرافات والأوهام ، ومشى جلال الاسلام إلى النفوس فطهرها ، وإلى العصية فأذابها ، وإلى الأحقاد فمحاها ، فاذا القلوب في ساحاته متضامة ، والأيدى بعهوده متصاخة ، والنفوس في حبه متفانية ، والعقول في أفقه متسامية .

خالطت هذه التعاليم الجديدة الرائعة التي جاء بها الاسلام ، أسمى قوة من العرب وهي قوة الشعور التي غلبت عليهم ، وامتزجت بها فكبحت جماحها وخففت من حدتها ، واتجهت بها نحو العقل المتشد الرزين الناظر إلى الأشياء بحكمها لا بصورها ، وبعلمها لا بنتائجها ، حفظا العقل العربي خطوة تدهش كل باحث .

وكان أول الميادين التي جرى فيها العقل العربي إلى أبعداياته الميدان الديني ، وهذا أمر منظور أن يكون لما للدين القويم من أثر في نفوس المسلمين ، ولأنه عماد هذه النهضة المباركة التي أدالت الأيام بها من الفرس والروم للعرب ، ومكنت لهم في مناحي الأرض وأذاعت فضل العرب على الانسانية في مسامع الدنيا .

سلامي على تلك الخلائق إنها مسلمة من كل عار ومأثم ولا تكاد تدنو من التاريخ حتى يملأ أذنيك صوت الثناء على قول الفقهاء ، وقادة الشرع وحفظة الدين ، وتستعرض صوراً من ثمرات قرائمهم فاذا بك في عالم يزخر بالفضل والتبلى والذكاء والاخلاص ، واذا رجعت لتطبيق ذلك على المقدرة الانسانية هالك الامر وأعوزك الرأي وأعجزك السر ، ولا تجد أمامك آتئذ إلا أن هذا نفحة الهبة خص الله بها رجال دينه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ولو ذهبنا نسرد عليك أسماء هؤلاء الأبطال من الفقهاء الذين خدموا الاسلام ، وسموا بالعقل العربي في حكمة التشريع إلى منزلة تتحسر دونها الأبصار ، وتتخاذل قبل بلوغها العزائم والآمال ، لأعيانا الاستقراء ، وعز علينا المنال ، ولكننا نذكرك منهم ، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، بعبد الله بن عباس وابن مسعود والحسن البصري والأئمة الكرام مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل ومحمد

وأبى يوسف مقورى مذهب أبى حنيفة وغيرهم ، وكل واحد من هؤلاء أمة بذاته ، ولفقهاء المذاهب مناظرات وجدل بلغا قمة التفوق والنبوغ ، واستوليا على أمد السبق وسيطرا لهذه العقول الخالدة آثارها سطور المجد نيرة على صفحات التاريخ ..

ونريد أن نعرج بالقارى الكريم على حياة قد تشعبت من الناحية الدينية ، وهى حياة الفرق الإسلامية من المعتزلة والجبرية وأهل السنة وغيرهم ، وهنا تفجؤنا حياة هائلة ترتاع منها القلوب ، وترى العقل العربى فيها قد طغا وتجر وأخذ بضروب من الجدل والمناظرة إن أثارت أسفك حيناً بموضوعها ، فهى حرية أن تثير إعجابك بما فيها من قوة جدل وحسن منطق وحاضر بديهة وشدة صولة ، وأصبح الخلاف بين هذه الفرق معترك نضال تتوالب فيه العقول ، وتتجمع فيه القروم شاكية السلاح ، فعمجت الحياة الإسلامية فى بغداد والكوفة والبصرة وفارس والمغرب والشام ومصر بأصوات هذه الفرق ، ومشى صائح الفرقة فى الرأى بينها ، وعقدت مجالس الجدل فى دور الخلفاء والوزراء والأمراء والعلماء للنضال والمغالبة حتى ساءت الحال وعمت الفتن ، واندس بين هذه الفرق كثير من الدسائس وشذاذ الآفاق ومحجى الكيد للإسلام ، فساقوا إليه أقوالا وشبها وأضاليل ونزعات من عقائدهم القديمة يرومون بها أن يشوهوا من جماله ويغضوا من جلاله ، ويفسدوا على أهله أمرهم ولكن هذا الدين الإلهى المتين صد كل ماهدو دخيل ليس منه صيدا عنيفا ورمى به فى هوة الضياع ، وانتفض انتفاضة الظافر الموفق ، فسلم من هذه الفتن ومضى فى سبيله مشرقا وضاء . وقد تركت هذه الفرق تراثا عقليا هائلا ، وهو على ما فيه من غث وسمين ذخيرة تفخر بها العربية ، وتعتز

بما فيها من صور عقلية عميقة لا ترى لها في كثرتها وقوتها نظيراً في الأمم الأخرى .

ونشرف على النهضة اللغوية فنراها تسامى الناحية الدينية ، بوفرة رجالها وصدقهم في خدمة اللغة وحسن الولاء لها والحدب عليها ، فترى رجال النحو وقد اكتظت بهم الكوفة والبصرة وبغداد وبلاد فارس والشام ومصر ، وقد تواتروا طبقات كل منها يبني وي زيد على من سبقه حتى بوبوا النحو وأكملوا ، وقوموا أسبابه وعلله وأتوا في ذلك بما يعد في عالم التفكير فتحاً مبنياً وتوفيقاً يفوق كل أمل وتقدير ، ولا نحب أن نمر بك دون أن نشير إلى بعض زعمائهم العظام كالخليل بن أحمد الفراهيدي سيد رجال اللغة وعالمهم الفذ ، وواضع نواة المعاجم العربية بطريقة تشهد له بالذكاء النادر ، وواضع علم العروض ومستنبط دوائره على نظام عجيب ، وهيات أن نجد من القول ما نوفيه به حقه ، ويكفي لبيان قدره أن يقول فيه بعض العلماء « إنه لا يجوز على الصراط بعد الأنبياء عليهم السلام أحد أدق ذهنًا من الخليل » ونذكر بعده من رجال العقول الفذة في النحو سيديوه تليذه وحافظ تراثه ، ثم الأخفشين والكسائي والقراء وغيرهم .

ومن رجال اللغة العاملين على حفظ غريبها ومأثورها وأشعارها أبو عمرو بن العلاء والأصمعي وأبو عبيدة وأبو زيد الأنصاري وأمثالهم ممن امتازوا برجاحة العقل وقوة الحفظ كحماد الراوية ، ولقد أدى هؤلاء العلماء الأمانة وصدقوا النية وتفانوا في أداء واجبهم ، حتى أقاموا اللغة حصونها ورفعوا منارها ، وراحوا إلى الله بحبائه ناضرة .

بهذه العجالة السريعة واللمحة الطارئة ، أصور العقل العربي في بعض

مناحيه ، ولا أكنتم القارىء أنى اقتضبت فيها القول اقتضابا ، وأشرت فيها إلى مظاهر العظمة للعقل العربي إشارة ، ولو أتى رمت أن ألج كل ناحية على ما ينبغي لها من الحق والنصفة ، لندبى الأمر عن الغاية ولا حتملت من النصب مالى باحتماله يدان ، ولكنى أردت بهذا أن أنشر صفحة يسيرة من تاريخ الآباء والأجداد ، فيعتر بهم الناشئون ويعلموا أن ماضى أسلافهم يفيض قوة ومجداً وعزاً ، وأنه جدير بالبحث والتنقيب أولئك آبائى فخفى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع وفى المقال الآتى سنعرض بحول الله لمظاهر العقل العربى فى الأدب وهو بحث طريف أرجو أن تكون له متعته ولذاذته — وإلى الملتقى .

